محمود حريتاني
أستاذ محاضر – حلب

محمود حريتاني

أفامية مدينة الخمسة عشر قرنا
جرش الأخت التوأم

البادية الأردنية كمعبر للحضارة

من الأمور الغريبة لدى بعض الأوروبيين الذين يقومون بدراسات عادية و خاصة السياحية منها، تسمية "البادية" المشتركة بين سورية والأردن "بالصحراء"، وإن عدم التمييز بين البادية والصحراء يدل على نقص في الثقافة العامة لدى هؤلاء تجاه معلوماتهم عن الشرق العربي.

لعبت بادية الشام التي تقتسمها سورية والأردن دورا حضاريا هاما فقد كانت تتوسط الطرق التجارية الكبرى بين البحر الأبيض المتوسط والشرق البعيد، كما نشأت فيها ممالك وحضارات، أهمها ممالك الآراميين في الشمال السوري مثل حماه ودمشق ودولة تدمر التي مدت سيطرتها في عهد الملكة زنوبيا على مساحات شاسعة. كما ازدهرت فيها مدن في عهود مختلفة حديثة، أهمها في الفترة الهلنستية بعد حروب الاسكندر الكبير المقدوني. فقد نشأت فيها مدينة جرش ومدن أخرى بالقرب منها عرفت "بديكابوليس" المدن العشرة. ثم لعبت دورا في الفترة الرومانية، و بعدها في الفترة العربية، حيث بنيت فيها القصور الرائعة، و منها قصير عمره وغيره.

سوف نتعرض في بحثنا هذا عن أفامية ومن ثم مدينة جرش الأخت التوأم.

يصعب على أي باحث أن يعرض موضوعا متكاملا لموقع افامية، في صفحات، فهو يروي تاريخ خمسة عشر قرنا من الأحداث الهامة، فضلا عن أن البحث والتنقيب فيه مستمر منذ أن لفت الأنظار إليه العالم البلجيكي المعروف "فرانز كومون" الذي زار الموقع عام ١٩٢٨ بعد عودته من زيارة موقع دورا اوروبس المعروف على الفرات. ثم زاره في تشرين الاول١٩٢٨ البروفيسور في جامعة لوفان فرناند مايانس بدعم مالي من "المركز الوطني للبحث العلمي" البلجيكي وبرعاية ملك وملكة بلجيكا، وميزانية مخصصة من قبل الحكومة البلجيكية.

نصب فرناند مايانس والمهندس هنري لاكوست خيامهم بين أنقاض المدينة في بداية تشرين الأول ١٩٣٠ وبدءا التنقيب، وكانت النتائج رائعة جدا. واستمر الدعم المالي حتى اليوم، كما اغتنت المتاحف الملكية البلجيكية للفنون والتاريخ باللقى الأثرية، وخاصة قطع الفسيفساء الرائعة.

في ١٩٣١ قرأ المنقبون الكتابات على حاملات التماثيل على الأعمدة وتضمنت أسماء انطونين التقي ولوسيوس فيروس، وبذلك بدأ تحديد تاريخ الموقع وخاصة الشارع المستقيم "الكاردو" كما زال الالتباس بين الاسمين "أفاميا" باللغة السريانية و"أمبيغانيا" باللغة الإغريقية الرومانية، حيث اختلط الأمر على الرواة المؤرخين بين اسم مدينة حماه واسم أفامية المتشابهان. وتبين الآن أن امبيغانيا هي حماه، و افامية هي مدينة سلوقس نيكاتور المعروفة والتي طواها النسيان بعد تدميرها بزلزالين كبيرين في عامي ١١٥٧ و١١٧٠، فترة سبعمائة و ستين سنة. كما طوى النسيان مدينة جرش بعد زلزال عام ٧٤٧م المدمر.

منذ عام ١٩٣٨ وقع المهندس لاكوست على جزء كبير من الشارع بطول ٣٥ مترا، وتبين له أن طول الشارع يتجاوز ١٦٠٠ مترا وقد صنع شبيها لهذا القسم ووضعه في الصالة الكبرى للمتحف الخمسيني في بر وكسل.

قبل أن انهي هذه المقدمة لا بد من أن انوه إلى أن دراسات الباحثين و قد تناولت المواقع الأثرية، بدأت قبيل انتهاء القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فقد زار شمال سورية الباحث بتلر–من جامعات الولايات المتحدة (بيل). و في عام ١٩٠٠ مر على افامية دون تحديد التسمية والتاريخ ووضع لها بعض المخططات. كما زارتها الباحثة الإنكليزية المعروفة جرترودبل في عام ١٩٠٧ وتعرفت على مدرج المدينة.

ومن الجدير بالذكر أن اكتشاف جرش جرى قبل ذلك بكثير فقد ذكرها بطليموس وسترابون والمؤرخ بلينوس، فقد تم التعرف عليها منذ عام ١٩٠٦ م من قبل باحث رحالة الماني ج. شو ماخر، وبعد ذلك بدأت فيها أعمال التنقيب منذ ١٩٢٣ م من قبل بعثات إنكليزية ،Garstang Cruofoot من ليفر بول ثم Fisher–من جامعة (بيل) وقد نقب حول معبد ارتميس. وفي ١٩٣١ تم التنقيب في الفوروم. ومن الجدير ذكره أن أول مخيم كشفي تمت إقامته في جرش في عام ١٩٣٢م وثم بدأ الترميم ولا زالت الأعمال مستمرة إلى اليوم.

١. افامية (المدينة)

مدينة الأباطرة والملوك والحكماء، زارتها كليوباترا وجاءها الإمبراطور سبتيم شفير وربما كانت معه جوليا دومنا الأميرة الحمصية

الأصل (من المعروف أن المصلبة الشمالية في جرش بنيت إكراما للأميرة السورية عندما تزوجها الإمبراطور السوري الأصل سبتيم شفير ١٩٢-٢١١م)، وهذا الإمبراطور جاء ليستشير الإله زفس بيلوس اله افامية الكبير. كما زارها كاراكلا وبومبي ونور الدين زنكي والظاهر غازي ابن صلاح الدين وغيرهم. وهي المدينة الجميلة النائمة على الهضبة والمدينة العظمى التي لا تزال تحيا وتستمر.

حملت افاميا عدة أسماء كبيرة وبعضها صغيرة (شيرسونيز chersonnese) و(انطونيو بوليس) و(نيا) التي نشأت فوق سطح الاوكروبول في فترة عصور البرونز، "فارناكة" كما ذكرها سترابون في عهد الفرعون أمنحوتب الثاني، وكذلك في الفترة الفارسية. "رونيا" حين زارتها كليوباترا "بيلا" بعد معركة إيسوس عام ٣٣٣ ق م تيمنا باسم موطن والد الاسكندر الكبير المقدوني في اليونان، بطل المعركة والمنتصر على الفرس والمتقدم في بلاد الشام حتى أقاصي الشرق.

كما عرفت "افامية" باسم الأميرة الفارسية "أباما" زوجة قائد الاسكندر الكبير(وهناك مدينتان أخريان باسم اباما لم يحدد مكانهما) سلوقس نيكاتور (٣١٢-٢٨٩ ق م) بعد معركة "إبسوس" عام ٣٠١ ق.م. وسلوقس هو الذي أعطاها وضعا مدينيا ضخما، وبقي هذا الاسم للموقع حتى اليوم، إلى جانب التسمية الثانية قلعة المضيق، كما بقي اسم جرشGerasa-الذي أحياه بومبي قائما إلى اليوم.

"قلعة المضيق" هو الاسم الحالي للبلدة الحديثة المجاورة للموقع، وجاءت التسمية لوجود القلعة العربية فوق المرتفع - اوكروبول المدينة القديمة - وكلمة المضيق لان نهر العاصي يمر بجانبها في أضيق مكان من مجراه والقلعة تسيطر تماما على مروره.

كانت إحدى مدن "التيترا بوليس" الأربع الكبرى في سورية القديمة في الفترة الهلنستية مع إنطاكية ولاوديسة (اللاذقية) وسلوقية على البحر (السويدية)، كما كانت جرش الهللنستية منذ أيام الإسكندر الكبير المقدوني، إحدى مدن "الديكابوليس" في الجنوب السوري القديم وقد جعلها أنطوخيوس التقي ثاني المدن ١٣٠-١٨٠ م، مع دمشق وشهبا وقنوات وغيرها، منذ عام ٢٠٠ ق م في عهد أنطونيوخوس الثالث، كما كانت أهم مراكز الدفاع عن الدولة السلوقية ضد هجمات البطالة وبدو البادية. وفي العهد النبطي وما بعده بقيت مزدهرة إلى أن احتلها الرومان عام ٦٤ ق.م.

تعود أصولها الأثرية إلى اكثر من سبعة آلاف عام خلت، حسب مكتشفات آثار العصر الحجري الحديث (النيولتيك) التي وجدت في حفريات جرت في المرتفع (الاكروبوليس) الذي تقوم عليه القلعة العربية. أما تخطيط المدينة الواضح إلى اليوم بشكله الشطرنجي ـــ حسب نظرية هيبوداموس ـــ فهو يعود إلى الفترة الهلنستية، في القرن الرابع قبل الميلاد وعهد سلوقس نيكاتور وبقي إلى اليوم ضمن أسوار بطول سبعة كيلو مترات و مساحة تقدر ب٢٥٠ هكتارا، فضلا عن اكتشاف مدافن خارج الأسوار، أغنت المتاحف بشواهدها الجنائزية الهامة. واكتشاف نصب بكتابة حثيه هيروغليفية من القرن التاسع ق م يتحدث عن بناء المدينة من قبل "اورهلينا" ملك "حمات" أي حماة الحالية.

أهميتها الإستراتيجية:

- لعبت دورا كبيرا في الفترة الهلنستية، و منذ توسعها كان دورها الاقتصادي كبيرا بجانب إنطاكية وعلى محاور الطرق كما كانت جرش كذلك مركزا تجاريا هاما ومركزا عسكريا كبيرا، وبالأحرى عاصمة عسكرية كبرى فيها إسطبلات الفيلة (دبابات ذلك الزمان) والخيول المطهمة، وفيها القيادة العامة ومقر وحدة المتفوقين العسكريين، وهي مقر الفيالق اليونانية العاملة في الشرق، وفي الفترة الواقعة بين عامي ١٩٦ حتى ٢٥٢ كانت المقر الشتوي للفيلق البارثي الثاني كما تدل النصب الجنائزية المكتشفة، كما كانت جرش حينئذ.
- العاصمة الثانية بعد إنطاكية، وعقدة المواصلات إليها، و قد بقيت أهميتها تلك في الفترة الرومانية - البيزنطية بعد أن فتحها القائد الروماني- بومبي ٦٤-٦٣ ق.م و دمر قلعتها (؟ !) غير أن الأباطرة الرومان لم يألوا جهدا في الاهتمام بها وخاصة الإمبراطور تراجان ٩٨-١١٧ الذي أعاد أعمارها كما اهتم بمدينة جرش وكذلك هادريان ١١٧-١٣٨ و مارك اوريل ١٦١-١٨١ الذي اعتنى بها و زاد في تجميلها، وخاصة بعد أن ضربها زلزال ١١٥-١١٧م وأعقبتها زلازل أخرى فيما بعد إلى أن قضت عليها زلازل ١١٥٧ و ١١٧٠م نهائيا. لقد أحصى كيرينيوس Quirinius في عهد القيصر اوغست عدد سكانها في العامين السادس والسابع ميلادية فكان ١١٧٠٠٠ نسمة من الرجال الأحرار القادرين على حمل السلاح والقتال، كما كانت الحرب سجالا بين الرومان والفرس للسيطرة عليها (٢٥٦م و٦١٨م، وفي جرش أيضا في عام ٦١٠م تغلب الفرس عليها واستردها هرقل إمبراطور بيزنطة منهم في عام ٦٥٧م وأصبحت من أهم مدن الغساسنة)، وتذكر الروايات التاريخية أن جنرال كسرى "ادارمانيس" اخذ منها ٢٩٢٠٠٠ أسيرا عام ٥٧٣م في عهد الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني.
- فتحها العرب المسلمون في عام ٦٣٦م وبنو جامعا فيها في عرض الشارع المستقيم (الكاردو) كما سيطروا على جرش أيضا. غير أن نقفورفوكاس أعاد احتلالها في القرن العاشر، وجاء الفرنجة فاحتلوها في طريقهم إلى القدس، و كانت الحرب سجالا بينهم وبين نور الدين زنكي حين كانت تابعة لامارة إنطاكية الصليبية، إلى أن حررها تماما نور الدين في عام ١١٤٩. أما جرش فقد احتلها في عام ١١١٨-١١٣١ بودوان ملك القدس وبنى حصنا في معبد ارتيمس ثم دمرها حين انسحب منها. وإن ملوك الفترة الأيوبية اهتموا بموقع أفامية فعمروا قلعتها (المعاصرة بعمارتها لقلعة حلب) وقد كانت أيضا موضع قتال مع الفرنجة.

وإذا كانت الأهمية الاستراتيجية تتناول الناحية الاقتصادية والتي لا نعرف الشيء الكثير عنها سوى أن الروايات التي تحدثت عن افامية وعن شهرة نبيذها المعروف ومذاقه المميز حين يخلط مع العسل.

أهميتها الفكرية

كانت مركزا وثنيا هاما إذ بني فيها معبد "زفس بيلوس" الكبير وجاء الإمبراطور سيتيم سفيروس يستشير كهانته وسدنته، فقد كانت فيها جالية يونانية ضخمة امتزجت بسكانها الأصليين، وتم التزاوج بينهم، و نشأ جيل جديد، كان اقرب إلى السوريين حضارة و لغة، وقد انتشرت بينهم اللغة الآرامية كما في جرش التي حمل بعض سكانها الآراميين أسماء إغريقية—اللغة الدولية آنذاك — وليس اليونانية التي كانت لغة الثقافة والأدب والعلم بينما اللاتينية لغة الحكم و الإدارة. حين جاءت المسيحية، كان المذهب الأفلاطوني الحديث سائدا ومزدهرا في أفامية بفضل "اميليوس" وكان لفلاسفته بتأثي المؤرخ أيضا رلون جين شهرة واسعة كما كانت المدرسة الرواقية منتشرة، ومن أعلامها في أفامية وبوزيد ونيوس.

اشتهر في تلك الفترة "اركاجين" طبيب الأمراض النفسية وعمل في روما خلال حكم تراجان ٩٨–١١٨ و"نومينيوس" أحد فلاسفة مذهب الأفلاطونية الحديثة، وأثره كبير فيما يعرف "بالكتب المقدسة" وكان يعتبر أفلاطون "كموسى يتكلم الإغريقية". وفي معبد أفامية الكبير تنبأ العرافون بمستقبل "جوليا دومنا" والدة إمبراطور روما المقبل "كارا كلا". أما في جرش فقد عرف حتى الآن من مفكريها "نيكوماخوس" وقد نبغ في علم الرياضيات.

في القرنين الثالث والرابع الميلاديين وحين انتشرت المسيحية استمرت الوثنية ونشأ صراع فكري وكارثي أحيانا بين المذهبين. دمر الأسقف مركيلوس معبد "زيوس بيلوس" في عام ٣٨٥م، ثم أعيد ثانية، ثم دمر مرة أخرى، وبنيت الكنائس إلى جانب المعابد القديمة التي اكتشفت في بدء أعمال التنقيب. وشارك أساقفة أفامية في عدة مجامع دينية والتي نوقشت فيها طبيعة السيد المسيح، وساد مذهب المونوفيزيت (الطبيعة الواحدة) في أفامية. ورغم ذلك كشفت الحفريات عن قطع فسيفساء رائعة كفسيفساء (سقراط والحكماء الستة) ويبدو فيها سقراط كأنه المسيح بين تلامذته وحواريه. كما كشفت فسيفساء "آدم" وإلى جانبها رمز المسيحية الممثل بالطير وحوله الهالة المقدسة.

وباختصار سادت المسيحية في المدينة حين اعترف بها تيودوسيوس ديانة رسمية، بينما بقي الريف وثنيا، وكانوا يسمون أفامية "مدينة زيوس المحبوبة". ومن الأهمية بمكان أن ينقب عن فسيفساء في مبنى ديني مسيحي يتم التعبير عن الأفلاطونية الحديثة فيها برموز مسيحية أو رموز وثنية مرتبطة بالمذهب الأفلاطوني الحديث (مثل مسابقة الجمال)، مهما يكن كانت بؤرة نشطة للأرثوذكسية ضد المونوفيزيت، كما كانت مركزا للمونوفيزيت بعد عقد المجامع الدينية وبنيت فيها كنائس متعددة على أنقاض المعابد كما في جرش حيث أصبحت اكثر المعابد فيها كنائس.

أهميتها في العصور الحديثة: بعد زلزالي ١١٥٧م و١١٧٠م وتدمير أفامية دخلت في طي النسيان ورغم ذلك فقد استمر الموقع في لعب دور هام إذ سكنت القلعة الجاثمة فوق اوكروبول المدينة وبني خان لتأمين المواصلات قرب الموقع القديم للمدينة في بداية الحكم التركي العثماني في القرن السادس عشر أي ١٥٢٥م وبانيه "محمد آغا قزلار" و بنى جامعا بالقرب منه، وتبين أن حجارة المبنيين أخذت معظمها من حجارة المدرج القديم لمدينة أفامية، وحين بدأت أعمال التنقيب وبدأت معالم المدينة تظهر، رمم الخان ومساحته ٨٠×٨٠م وفيه أربعة أروقة مسقوفة وفي وسط الباحة درج يؤدي إلى نبع ماء، جمعت فيه اللقى الأثرية، وخاصة لوحات الفسيفساء الهامة كلوحة سقراط ولوحة مسابقة الجمال ولوحة الامازونات وغيرها، وهي من أهم اللوحات الفسيفسائية المكتشفة في المنطقة وشمال القطر العربي السوري، ويعتبر اليوم اكثر خانات الطرق حفظا في العالم بعد أن رمم جيدا.

٢. أفامية (الموقع)

الموقع: يعود في بدايته للعصر الحجري كما اكتشف في الاكروبول وكذلك موقع جرش الني اكتشفت فيه أدوات صوانية، كما اكتشف فيه خارج أسوار المدينة إلى الشمال سويات عصري البرونز والحديد.

المساحة: تقدر مساحة موقع مدينة أفامية بين ٢٢٠ و ٢٣٠ هكتارا على هضبة قليلة الارتفاع شبه محصنة، يضم المدينة المؤلفة من شارع رئيسي (كاردو) وشوارع عرضية متقاطعة على شاكلة رقعة الشطرنج، وهو التخطيط الهيبودامي المعروف، كما يضم أوابد متعددة يصل تعداد ما اكتشف منها حتى الآن ٢٥ أبدة، تشكل شبه جزيرة بجانب نهر العاصي، وأبرز ما فيها اكروبول المدينة وعليه القلعة العربية ثم المدرج. لقد كانت مدينة كبيرة، وتأتي في الأهمية بعد إنطاكية.

السور: ويحيط بمدينة أفامية بطول سبعة كيلومترات وسبعة أبواب يتجه كل منها إلى مدينة هامة في المنطقة إنطاكية وأوديسا (اللاذقية) ولاريسا (شيزر) وابيغانا (حماه) وتدمر واسريا (سريانا) وخلقيس (قنسرين). حتى أن اوكروبول المدينة (فوقه قلعة المضيق الحالية) كان جزءا من السور، ارتفاع السور ١٠ أمتار وعرضه ٢٤٠ سم يدعمه نحو مائة برج وقد تبين أن أساسات السور هي هللينية، ثم رومانية، و أخيرا في قسمها الأعلى بيزنطية أي في القرن الخامس الميلادي وقد رممت في عهد الإمبراطور جوستنيان وخاصة الأجزاء المجاورة للبابين الشمالي والجنوبي، كشف السور دفعة واحدة من قبل موظفي المديرية العامة للآثار والمتاحف مجتمعين في عام ١٩٨٤، وتبين أن الأبراج العريضة هللينية التصميم و البناء ، بينما الأبراج الأصغر حجما و المدعمة فهي تعود إلى العصر الروماني والمسافات بينها تقدر بنصف المسافات بين الأبراج الهللينية، و لقد بني السور بعد تأسيس المدينة أي حوالي ١٩٩ ق. م. و خلال كشف الأسوار تم الكشف عن ١١٠ نصب وشواهد جنائزية استخرجت من أحد أبراج السور الشرقي أي في البرج رقم ١٥ من بداية الباب الشرقي.

الباب الشمالي: لقد كشف في جرش حتى اليوم البوابة الشمالية في نهاية الشارع الممتد وقد بنيت باسم تراجان عام ١١٥م، بينما بنيت البوابة الجنوبية (بوابة عمان وتدعى قوس النصر في عام ١٢٩–١٣٠

لدى زيارة الإمبراطور هادريان، بينما لا يزال الباب الشمالي قائما في أفامية ولكنه أنقاضا بعد الزلازل، بينما زال باب القسم الجنوبي منذ فترة طويلة، أما الأبواب الأخرى إذا وجدت فستكشف ضمن أعمال الترميم المستمرة إلى اليوم.

يتألف الباب الشمالي في أفامية من قوس نصر ذي فتحات ثلاث ويعود إلى القرن الثالث للميلاد فقد بني بعد زلزال ١٣ كانون الأول ١١٥ ميلادية، وجدد جزئيا في القرن السادس الميلادي وأضيفت واجهة جديدة إليه على واجهته الجنوبية، لا يزال معظمه حتى اليوم أنقاضا، وسيكون المشروع المقبل لأعمال الترميم.

الشارع الرئيسي (الكاردو): ويقدر المنقبون في أفامية طوله حوالي كيلومترين، بعرض ٣٧,٥ مترا، منها ٢٠,٥ للطريق والباقي للأروقة ويحلو لبعض الباحثين تشبيهه "بالشانزليزيه". كان عدد أعمدته حوالي ١٢٠٠ عمودا بين العمود والآخر ٣ أمتار، خطط هذا الشارع ليكون العمود الفقري للمدينة وكأنه موازيا للجبال الساحلية المجاورة، تحيط به مساحات عقارية مستطيلة ناتجة عن تقاطع ١٦ شارعا تتجه من الشمال إلى الجنوب مع ١٦ شارعا تتجه من الشرق إلى الغرب، وهو هلليني التخطيط على طرفيه تقوم الأعمدة، ويأتي وراءها صفوف من المخازن والمداخل للأبنية العامة القريبة من الشارع والشوارع الفرعية إذ بعد كل ٣٤ عمودا يتفرع شارع جانبي. نجد الأمر نفسه في مدينة جرش وتخطيطها الشبكي وخاصة وجود المصلبات (التترابيل) وهذا لم نكتشفه بعد في افامية.

بعد زلزال ١١٥ ميلادية في أفامية أقيمت الأعمدة على الطراز الروماني في عهد الإمبراطور تراجان ١١٧/١١٦م، أما القطاعات الجنوبية منه فتعود إلى القرن الثاني الميلادي في عهد سبتموس سفيروس، ثم رمم الشارع مرة أخرى بعد زلزالي ٥٢٦ و٥٢٨م، ورمم بلاط الأرصفة أيضا فوق ردميات وصلت إلى سماكة ٣٠ إلى ٥٠ سم خصصت للمشاة. وفي القرن السادس الميلادي منع سير العربات على الشارع الرئيسي واستعيض عنها بالسير في الشوارع المستعرضة. ومن الجدير ذكره أن شارع جرش الممتد بطول ٨٥٠م وعرض ٦م وكان فيه ٥٧ عمودا من اصل ٥٢٠، إلى جانب الشارع في أفامية وغير بعيد عنه بنيت الحمامات (أول من حدد شكلها النهائي المعمار ابولودور الدمشقي حين بناها في روما للإمبراطور تراجان) وقد وجد على مدخلها الذي يشكل جزءا من الشارع كتابة مكرسة لصحة الإمبراطور تراجان مقدمة من يوليوس أغريبا سليل الملكات الهللينية [1] ومن المعروف أن أغريبا أول من أنشأ حمامات عامة في روما حملت اسمه والمعروف انه كان وزير أغسطس.

لا تزال بقايا الأقسام الثلاثة للحمام قائمة في أفامية وبعض المغاطس والأفنية من الطين المشوي، كما حفظت الحنية، ولكن نظام Hypocaustes (دورة الهواء الساخن) قد دمر، وبقيت أقنيته في الجدران قائمة، ولم تكشف أقنية إيصال الماء للحمام، ولكن من المعروف أن أفامية التي كانت تعوزها الماء قد عملت على جلب المياه النقية من مناطق بعيدة تتعدى ١٢٠ كيلو مترا رغم وجود نهر العاصي بجوارها، وقد كشف قسم من الأقنية الواصلة إلى الباب الشمالي. لقد تبين وجود أعمدة تذكارية قائمة في عرض الشارع (الكاردو) و قد اكتشف إحداها وأعيد نصبه في عام ١٩٦٩ وهو بارتفاع ١٤ مترا ألحق به رصيف لجلوس المتنزهين Exedra، وقد تبين أن هذا العمود المقام في الربع الأول من الشارع المستقيم (اعتبارا من الباب الشمالي للمدينة ـــ باب إنطاكية) كان يدل على مفصل لشبكة الطرقات، وقد اكتشفت القاعدة فقط لعمود تذكاري آخر وموقعه في منتصف الشارع، ويحيط به رصيف لجلوس المتنزهين، وما يشبه الأعمدة التذكارية فقد وجدت في محيط الشارع دعامات مزخرفة أهمها الدعامة الباخوسية وقد اكتشف في عام ١٨٤٦ من قبل أحد الرحالة واسمه تومسون وهي عضادة لقوس لمنفذ إلى شارع عرضي، عليها نقوش ميثولوجية تمثل عذاب ملك ليكورغوس الذي عارض الإله ديونيسيوس. أخيرا و بالقرب من الشارع العرضي الرئيسي (ديكومانوس) وجدت أطلال أل "نيفة" "سبيل حوريات الماء" (أما النيفة في جرش فقد بنيت عام ١٩٠م زمن الإمبراطور كموديومس وبقربها بنى هيكل مكرس لعذارى فستا)، و يتجاوز قطر حوض حوريات الماء في أفامية ١٥مترا محاط بمحاريب كان فيها تماثيل مرمرية لأثينا وأفروديت وغيرهما، له واجهة من المرمر الأصفر وأرضيتها على شكل الشطرنج مكسوة بمرمر وردي وأخضر وكان عليها قبة تحيط بها ثمانية دعامات كبيرة، وفيها مجاري تغذيها بالماء من حوض مستطيل بجوارها، إلى جانب حوض حوريات الماء كانت توجد المراحيض العامة فيها من ٨٠ إلى ٩٠ كرسي ولها قبة، وحول البناء أربعة أروقة مكسوة بالفسيفساء.

في محيط الشارع المستقيم قامت عدة أبنية عامة هامة في أفامية، ومن أهمها الأغورا أي الساحة العامة أو "الفوروم" مدخلها الرئيسي

---

١. نص كتابة لوحة الحمامات باسم اغريبا: "له حقوق أجداده جميعها واستثناء خاص بشأن الطقوس الدينية، وكل الأمجاد الأخرى المسجلة على ألواح البرونز في الكابيتول بروما، لقد أنجز أعمالا هامة من أجل وطنه وطقوسا دينية، كان قسيسا، وكان حاكما مكلفا بمراقبة السوق بشهامة ومروءة. وأشرف على توزيع القمح خلال ستة أشهر بدفع مبلغ قدره عشرة دنانير فضية. لقد قدم الزيت للدهن به. وأنشأ القناطر مسافة عدة أميال. وكان أمين سر المدينة متخذا أسلوبا غير عادي، وطالب بذاته أن تكون الإجازة لمدة عام، واختار بنفسه زملاءه في القضاء، وفي العام ذاته كان مفوضا للسلام، ومسؤولا عن توزيع القمح. وقد أنشأ الحمامات والرواق الذي يتقدمها على الشارع والبازيلكا التابعة لها مانحا الأرض من ماله الخاص، واقفا اعمالا برونزية في هذه الحمامات "مجموعة تيسيوس والمينوتور ومجموعة أبولو وأولمبوس ومارسيا والسيكيتي".

وقد تطوع بالقيام بسفارات لدى الأباطرة والحكام. وكان له من جهة أمه وأبيه أجداد شرفاء وكرماء ورؤساء ولايات وأشخاص لهم نصيب بألقاب الشرف الملكية، ومن بين هؤلاء: ديكساندروس جده الأكبر أول كاهن كبير في الولاية. ونظرا لصداقته ووفائه للشعب الروماني فقد سجل صديقا وحليفا على ألواح البرونز في الكابيتول، من قبل أغسطس المعظم، وعلى هذه الألواح ذكرت أيضا بقية ألقاب الشرف الاستثنائية الممنوحة له ولعائلته. ومن بين هذه الألواح الخلاصة المحفوظة هنا في الوثائق.

"السنة ..... شهر كساندكوس اليوم ٢٨ من قبل مدينتنا وطبقا لقرار المجلس والشعب فقد منح ديكساندروس لقب شرف في شهر بيريتيوس-اليوم الثالث قبل نهاية الشهر في هذا القرار"

من الجهة الشرقية المطلة على الشارع الرئيسي بعرض ٤٥ مترا، تمتد الساحة شمالا بطول ١٥٠ مترا ومحاطة بأعمدة جميلة ضخمة طرازها شرقي وعددها ستة أعمدة، بنيت بعد زلزال ١١٥م وانتهى بناؤها في عام ٢١٨م، وجدت فيها كتابة تنص على إهداء إلى جوليا ميزا والدة الإمبراطور الروماني إيلاغابل، لم تكتشف بشكل كامل حتى اليوم، ولكن تبين أنها تنفتح على أكبر معبد في أفامية معبد زفس بيلوس أكبر المعابد وأضخمها علما بأن أفامية كانت تعد "مدينة زفس وحبيبته" وهو رائد الثروة ومعلم الفكر.

ومن الأبنية الهامة-قصر الحاكم؟ Triclinos أوTriclinium، وقد كشفت فيه غرفة لها ثلاث مصاطب حجرية على شكل حذوة فرس، أشبه بالمقاعد أو بالأسرة، والقاعة الرئيسية فيها غرفة طعام أو غرفة اجتماعات.

أما البيت ذي حوامل الإفريز فقد رمم عام ١٩٧٧ ومساحته تقدر ٢٠٠٠ متر مربع، بني في المرحلة التي توسعت فيها مدينة أفامية أي في القرن الثاني الميلادي، رمم بعد الهزات الأرضية في القرن السادس، له مدخل متعرج، وفيه باحة تحيط بها الأعمدة مساحتها ٦ × ٩م مزود ببهو طابقي يشبه إيوان الساسانيين أو بيوت حلب التقليدية، وهناك ثلاثة أبواب تفضي إلى القاعة الرئيسية لاستقبال الضيوف، مبلطة برخام ملون وفيها حوض ماء، لم يستمر هذا البيت أكثر من القرن السابع الميلادي، إذ لم يجد المنقبون فيه نقودا عربية اعتادوا رؤيتها في تلك الفترة (أقيمت أهم الأبنية في جرش بين عامي ٧٥-٧٦م ولتكريم الإمبراطورين تراجان ١١٥م وهادريان ١٢٩م علما بان عددا من المعابد كمعبد زيوس في جرش بني بين عامي ٢٢-٢٣م).

أما البيت ذو الأعمدة البارزة فهو بالقرب من البيت السابق جنوباً منه، رمم أكثر من مرة واستمر وجوده حسب اللقى الأثرية المكتشفة فيه حتى القرن العاشر الميلادي، فيه بهو مبلط، إلى شماله قاعة رئيسية بثلاثة أبواب، وعرض منصته ٢٤٥م.

أما المسرح فقد بني قرب السور الهلليني الأول لمدينة أفامية، نموذجه روماني يعد من أكبر المدرجات في الشرق قطره ١٣٩مترا وعرض منصته ٢٤٥م (مسرح أورانج في فرنسا قطره ١٠٣م) (قطر مسرح بصرى ٩٠م) تحول إلى حصن في العصور الوسطى في القرن الثاني عشر كما تدل الكسر الفخارية. وكما جرى في مدرج بصرى الشام لم يكتشف بالكامل، ومن المعروف أن أكثر حجارته قد نهبت وبني منها الخان والجامع في الفترة العثمانية، وقد استعمله نور الدين زنكي قاعدة عسكرية لينطلق منها لمهاجمة القلعة العربية (قلعة المضيق) ويخلصها من أيدي الفرنجة عام ١١٤٩م (بينما حفظ المدرجان في مدينة جرش بحالة جيدة ويدل وجود المدرجين معا على أهمية المدينة).

أما المقبرة فلم يتم حتى الآن سوى اكتشاف مدافن خارج الأسوار، مقابل الباب الشمالي المعروف "باب إنطاكية" وقد حصل المنقبون فيها على عدة تماثيل، وعشرات من شواهد القبور، ويظهر أنها أخذت منها ودعمت بالسور كما ذكرنا أعلاه، وهي تعطينا معلومات تاريخية قيمة عن أفراد الفيلق البارتي الذي كان متمركزا في مدينة أفامية في أوائل القرن الثالث الميلادي، فضلا عن معلومات عن اللباس والأسلحة وغير ذلك.

الآثار المسيحية

- الكاتدرائية: تشبه إلى حد ما كنيسة مار سمعان، أصبحت كاتدرائية في القرن السادس، وغطت بمساحتها البالغة ١٢٠٠٠متر مربع قسمين من مخطط المدينة وتفضي إلى الشمال برتاج ضخم يتقدم حتى الشارع، و يستقبل الزائر للكنيسة بثلاثة أقواس تتقدم النرثكس المبلط. وفي وسط النرثكس نرى كتابة محفورة على بلاط وردي لتدشين التبليط "في أسقفية بولس سنة ٥٣٣" ويلي النرثكس فناء فسيح تحيط به أروقة من ثلاث جهات، يقود إلى الكاتدرائية، ويتميز البناء بأربعة تفرعات يمتد أحدها إلى الشرق مشكلا معبدا طويلا ويدفعنا هذا التصميم الأول الذي يعود على الأرجح إلى القرن الخامس بتفرعاته الأربعة مع قبة في الوسط، إلى اعتبار الكنيسة مقاما أو دارا للشهداء (مارتيرون) شيد من دون ريب ليضم ذخيرة عود الصليب التي كانت تمتلكها أفامية، وقد روعي في تصميمه ما يترتب من خدمات على الكنيسة التي يؤمها الحجاج.

بعد الزلزالين المتعاقبين اللذين ضربا المدينة وكذلك إنطاكية عام ٥٢٦ و٥٢٧ حوّل البناء إلى كاتدرائية تحت إدارة المتروبوليت بولس المثقف والمولع بالفن، و قد تطلب هذا التعديل إصلاحات هندسية هامة، سد التفرع الشرقي الذي كان يشكل معبدا بحنية ضخمة فيها ثلاثة نوافذ مرتفعة، وإلى أسفل الحنية ركزت مقاعد الكهنة على شكل نصف دائرة، يتوسطها مدرج مهيب يقود إلى عرش رئيس الأساقفة، وإلى الأمام قاعدة كبيرة من المرمر الوردي المضلع انتصبت عليها أعمدة القبة التي تعلو المذبح، ثم صفان من أربعة أعمدة تقسم صحن الكنيسة تحت القبة الكبرى إلى ثلاثة أسواق وقد جعلها هذا التغيير كنيسة متروبوليتية، مع الاحتفاظ بالمارتيربون في الوسط وتفرعاته التي استخدمت كأروقة/ أسواق.

كانت زخرفة البناء كلها غنية جدا، وقد أنجزها رئيس الأساقفة بولس، ووجدت هناك كتابات يونانية تدل على أن هذا الأسقف أمر بتيجان أعمدة رواق الكاتدرائية الداخلي وبالتبليط الفسيفسائي الجميل في معظم أرجاء الكاتدرائية وتوابعها، وبالفسيفساء الرائعة ذات الألوان الثرية، وهي مربعة الشكل ضلعها ٦,٣٠م وقطر الصورة في الوسط ١,٢٧م وقد اكتشفت سنة ١٩٧٢ في الزاوية الجنوبية الشرقية من البناء ذي الأذرع الأربعة، وتشير إلى الخلافات اللاهوتية في تلك الحقبة بين القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتين.

- الدار الأسقفية وملحقاتها: لما كانت الكاتدرائية مركزا لرئيس الأساقفة أيضا، فقد أحاط بها من المباني ما يلزم لإدارة كنسية كبيرة، فهناك قصر أسقفي حقيقي ينبسط إلى شمال الكاتدرائية وغربها، وينتظم حول مجموعة من الباحات والممرات، يضاف إلى ذلك مجمعان للمعمودية، بنيا على الأرجح في أزمنة مختلفة الأول خصص للعماد بالتغطيس،

وهو ملحق بمعبد الشهداء، ضمت الحنية الشرقية منه جرن التغطيس والحنيتان الجانبيتان الذخائر المقدسة، والآخر إلى الجهة الجنوبية الشرقية من حنية الكاتدرائية، خصص للعماد بالرش، وتتقدمه قاعدة كبيرة لها مقاعد يجتمع فيها الموعوظون لدى تهيئتهم للعمودية.

أما المعبد الواقع إلى الشمال فهو في الحقيقة مدفن، وقد عثر فيه على ١٣ ضريحا على الأقل، وكان المعبد الجنوبي مكرسا على الأغلب للعبادة، يزينه تبليط فسيفسائي لا يزال القسم الأكبر منه قائما حتى اليوم، ويرى أيضا في ذلك الموضع ركيزة المذبح وبعض أقسام من بلاطات مقاعد الحنية.

وعلى هذا النحو كان مجمع أفامية الأسقفي ومثيلاته في جرش يشكل واحدا من أهم المجمعات الهندسية في الشرق المسيحي.

- الكنيسة ذات الباحة: دعت الحاجة بعد الزلزالين في سنة ٥٢٦ و٥٢٨ إلى ترميم كنيسة أخرى ترميما كاملا في الحي الجنوبي من المدينة. فوسع البناء الوضيع العائد إلى القرن الخامس بإضافة سوقين إلى جانبيه، ورفع مستواه بإقامة شعريات وذلك نادر في الشرق وزيد في طوله ببناء حنية كبيرة طالت الشارع الخلفي، وتتقدمه باحة كبيرة " ومنها جاءت التسمية" وهذا الفن الهندسي النادر في سورية يشير إلى تأثير مهندسي القسطنطينية المباشر وقد أوفدهم شخصيا الإمبراطور "يوستنيان" ليرفعوا من الأنقاض تلك الكنيسة الحاوية ذخائر القديسين: قوزما وداميانوس والقديس ثيودوروس وقديسين آخرين. وكان الحجاج يسكبون الزيت من قمع مثبت فوق غطاء الصندوق، و يجمعونه في قوارير وأنابيب صغيرة من جنب الوعاء بعد مروره على الذخائر.
- الكنيسة المستديرة: تقع هذه الكنيسة المستديرة في وسط المدينة. هنا أيضا باحة فسيحة تحدها أروقة من جهات ثلاث تتقدم البناء، وهي كناية عن كنيسة ذات مخطط محوري، ترقى إلى عهد الإمبراطور يوستنيانوس، إلا أنه لم يبق منها إلا القليل، ومع ذلك يمكن الاطلاع بسهولة على القاعدة المستديرة للأعمدة وعلى مخطط المبنى العام، وهي شبيهة بكنيسة السيدة العذراء في بيسان (سيتوبوليس) في فلسطين. والمعضلة التي يواجهها الباحث هنا، كما في تلك الأبنية من الطراز نفسه، هي كيف كان من المستطاع أن تسقف مساحة مستديرة لا يقل قطرها عن ٢٥ م؟ ومن المعضلات الأخرى وجود رواق مماس للدائرة الوسطى يفصلها عن الحنية المركزية، مشكلا بذلك نمطا فريدا في الهندسة المسيحية القديمة في تلك المناطق. أما قدس الأقداس فكان مرتفعا يرقى إليه بدرجين صغيرين يصعدان من جانبي مقدمة الحنية.
- بازليك: وحيدة في هندستها فهي مربعة الشكل ومحاطة بأروقة وأعمدة، تقع قرب المدرج، فيها فسيفساء بيزنطية جميلة من سنة ٥٣٩ أودع قسم منها المتحف الوطني بدمشق، والقسم الآخر أرسل إلى متحف بروكسيل في بلجيكا.
- كنيسة الشهداء: في موقع كنيس يهودي من نهاية القرن الرابع (فيه فسيفساء من سنة ٣٩١) نهب و حرق وعلى أطلاله شيدت كنيسة في القرن الخامس، عثر فيها على صناديق ذخائر مع كتابات من القرن الخامس والسادس، وصندوقين محفورين في الصخر لعظام القديسين قوزما ودااميانوس، وآخر للقديس ثيودوروس، وآخر لشهداء سبسطية الأربعين، وأخير لشهداء غير معروفين.
- البازليك الشرقية: بنيت في موقع روماني مزين بفسيفساء، حيث وجد صندوق ذخائر من المرمر الوردي.
- البازليك الشمالية: كنيسة كبيرة تقع خارج الأسوار في شمال المدينة على مسافة ٥٠٠م من بوابة إنطاكية في شمال شرقها، لها ثلاث قناطر متلاصقة، منقسمة إلى تسع فتحات، يتقدمها نرثيكس، بقي منها بعض الآثار، وبقربها دير قديم.
- كنائس وأديرة: هناك أولا مصلى خارج المدينة يقع في الحقول وعلى مسافة ٤٠٠م إلى الشرق، له علاقة بالمدافن، بقي منه الحنية فقط. وهناك كنائس أخرى كما تثبت الخرائب في مواقع عديدة من المدينة.

- القناة: طولها ١٢٠كم آتية من بلدة سلمية الحالية تغذي آبار أفامية، وينابيعها مجهولة، تدخل المدينة في نفق مدت فيه اسطوانات حجرية ضخمة قطرها الداخلي ٥٠سم والخارجي ٩٠سم تتفرع منها قساطل فخارية توزع الماء في المدينة.

القلعة: وتعرف دائما باسم "قلعة المضيق" تقع فوق تل كبير تشرف على سهول الغاب ووادي العاصي. كانت تسمى قديما حصن أفامية لقربها من موقع أفامية المدينة المشهورة. وقد شهدت القلعة معارك حامية الوطيس بين الروم البيزنطيين والحمدانيين. وفي عام ٤٢٢هجري استولى البيزنطيون على القلعة وأسروا حاميتها. وفي عام ٤٧٥هجري دخلت القلعة في حوزة الملك السلجوقي "ملك شاه بن ألب ارسلان" وبعد ذلك استولى عليها الإفرنج بقيادة تنكريد أمير إنطاكية.

كان يحيط بالقلعة خندق عظيم وقد رصف منحدر التل بحجارة منحوتة على غرار قلعة حلب، وقد أعاد بناءها نور الدين زنكي عام ١١٥٨م لتشكل خط دفاع على طول وادي نهر العاصي وهي ذات أبراج ضخمة.

الخاتمة

تولي المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية عناية كبيرة للقيام بأعمال الترميم في موقع أفامية، كما تقوم البعثة الأثرية البلجيكية و"سلسلة فنادق الشام" بتقديم الدعم المالي أيضا لاعمال الترميم، وهكذا ترتفع عشرات الأعمدة كل عام.